

مسافر على بساط الريح

من أخبار المسافرين (٢٠)

لئن كان العلم الحديث الآن يباهي بما وصل إليه من التطور والتقنية في مجال السفر فاختُرعت الطائرات العملاقة وأصبح الإنسان يطوف الدنيا في أيام معدودات عبر الجو وذلك كله بفضل الله تعالى فهو الذي خلق هذه العقول المخترعة وأوجدها من العدم.

لئن كان الأمر كذلك فإن الله تعالى بفضلله وقدرته قد منَّ على بعض عباده بنعمة عظيمة وهي السفر جواً وذلك قبل آلاف السنين وهو نبي الله سليمان بن داود عليه السلام الذي آتاه الله ملكاً لم يكن لأحد من بعده ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَلْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ﴿٣٥﴾ فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ [ص] سَحَّرَ اللهُ تعالى لسليمان الريح تجري بأمره حيث أراد من أي البلاد وكان له بساط مُركَّب من أخشاب بحيث إنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة والخيول و الجمال والأثقال والرجال من الإنس والجن وغير ذلك من الحيوانات والطيور فإذا أراد سفراً أو مستنزهاً أو قتال ملك أو أعداء من أي بلاد الله شاء حمل هذه الأمور المذكورة على البساط وأمر الريح فدخلت تحته فرفعته، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعتة في أي مكان شاء، بحيث كان يرتحل في أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه بإصطخر مسيرة شهر فيقيم هناك إلى آخر النهار. ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس كما قال تعالى:

﴿ وَلَسَلَيَمَنَّ الرِّيحُ غُدُوَهَا شَهْرٌ وَرَوَا حُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمَنْ أَلْجَى مَنْ
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٦﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا
ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُ ﴿١٧﴾ ﴾ [سبا]. قال الحسن البصري: كان
يغدو من دمشق فينزل بإصطخر فيتغدى بها ويذهب رائحاً منها فيبيت
بكابل وبين دمشق وبين إصطخر مسيرة شهر وبين إصطخر وكابل مسيرة
شهر.

استراحة المسافر (٦)

* صحب طفيليَّ رجلاً في سفر من الأسفار، فقال له الرجل : امض فاشتر لنا لحماً قال : لا والله ما أقدر، فمضى هو واشترى ثم قال له : قم فاطبخ . قال : لا أعرف، فطبخ الرجل، ثم قال له : قم فاثرد . قال : أنا والله كسلان . فثرد الرجل، ثم قال له : قم واغرف . قال : أخشى أن ينقلب على ثيابي . فغرف الرجل، ثم قال له : الآن فكل . قال الطفيلي : قد والله استحييت من كثرة خلافي لك، وتقدم فأكل .

* قيل لطفيلي : كم يساوي اثنين في اثنين؟ فقال : أربعة أرغفة .

* قال داود المصাব : رأيت رؤيا نصفها حقٌ ونصفها باطل، رأيتُ كأن على عنقي بدرة - يعني كيس فيه عشرة آلاف درهم - فمن ثقلها أخذتُ، فاستيقظت فرأيت الحدث ولم أر البدة .

شيخ الحارة :

وهذه إحدى قصائد أحمد قنديل - رحمه الله - وهي من شعره الحلمنتيشي، وقد نظم هذه القصيدة على لسان الفرزدق فيقول :

قال الفرزدق يمدح شيخ الحارة حينما تجاهله في المطاف أمير العربان السابق :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
والمسفل والنقا، والباب قاطبة	والفرد والشون، والليسان والحزم
إذا رأته النشامي قال أجمعهم :	هذا الذي ردّ أهل الشَّعب كلهمو
في راحة الكف عود زفرته له	وما الرِّجال لدى الهوشات واللمم

وفي الصُّبَّاعِ مخاويٌّ له قُبٌّ
وبالرَّجُولِ أبوخَرْزِينِ قد رُفِعَتْ
إنَّ صاحِبَ رَدَّدَتْ الحاراتِ زَعَقَتَهُ
لا يَقْبَلُونَ النَّقِيصَا، ضِدَّ صاحِبِهِمْ
أَصْحَابُ أَصْحَابِهِمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ
فَفِي الحَرائِقِ والفَزَعَاتِ أَجْمَعِهَا
فَسَائِلُ الشَّيْخِ عَنْ أَيَّامِ عَزَّتِنَا
وَاسْمِعْ حِكَايَتَهُ عَنَّا، وَكَيْفَ جَرَتْ
وَاجْلِسْ قُبَّالَتَهُ، وَانْظُرْ لِقَنْجَتِهِ
كَذَا الرِّجَالِ وَلَوْ هَانُوا وَلَوْ تُسِيتْ

الكف منه - إذا ما ذقته - عدم
شراكه وتواطت تحته الرمم
وجاوبته عيالٌ، طبعها الكرم
والولف عادتهم، والعهد والشيء
فلا تُعَالِمُ، إذا ما جاء ذِكْرُهُمْ
هم أهل صيحتها الكبرى، متى علموا
وابرم شواربه الملساء يا بَجَمُ
أو عن بزورة هذا الوقت، كيف هُمُ
فبين فِقْشَاتِها التاريخ مُنْسَجِمُ
أزمانهم، وتمشى فوقها القدم

ساعة الوداع

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
 غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
 فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبث ما كان موصولاً بأيدينا
 بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
 نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
 حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
 ما أشق هذه الكلمة على النفوس وما أشد حرارتها في الأفئدة - إنها
 الساعة التي تفترق فيها القلوب المتحابه وينقطع معها حبل الوصل، وأيام
 الأنس وليالي الألفة.

مددت إلى التوديع كفاً ضعيفاً وأخرى على الرضاء فوق فؤادي
 فلاكان هذا آخر العهد منكم ولاكان ذا التوديع آخر زادي
 ساعة الوداع هي الساعة التي لا تُنسى، واللوعة التي لا تبلى، والحرقة
 التي لا تبرد، نارٌ تلهبُ الأحشاء، ودموعٌ تُحرق الوجنات، وعيونٌ تنثر
 العبرات، استمع معي إلى هذه الأبيات وضع يدك على قلبك، واترك
 النطق لدمعك

فوالله لا أنسى مدى الدهر قولها ونحن على حدِّ الوداع وقوفٌ
 وللنار من تحت الضلوع تلهبٌ وللماء من فوق الخدود وكيف
 ألا قاتل الله الصُروفَ فإئماً تفرقُ بين الصاحبين صُروفُ
 هذه هي ساعة الوداع وتلك هي لحظات الفراق، يضعف فيها

الأقوياء، وينهار لهولها الأشداء.

ضَعُفْتُ عن التسليم يوم فراقنا
وأَمْسَكْتُ عن ردِّ السلام فمن رأى
رَأَيْتُ سَيُوفَ البين عند فراقنا
عليك سلامُ الله مِنِّي مُضاعِفاً
ولله در القائل:

ولما وَقَفْنَا للوداع وقلبها
بكت لؤلؤاً رطباً وفاضت مدامعي
وما أَرُوع ما قاله الآخر:

لم يَبْكُنِي إِلَّا حَدِيثُ فراقكم
هو ذلك الدَّر الذي أودعتم
ساعة الوداع أمضى من السيف حسماً، وأوقع من الحمى ألماً. إنها
مُفَرِّقة الأصحاب، ومُبَعِّثة الأحباب. فيها تسخو الدموع، وتجود
الجفون، وتكتوي الوجنات بحرارة العبرات، فيها يخفق الفؤاد ألماً،
وتحترق النفوس ندماً. فيالله كم أحرقت من كبد رطبة، وكم أرهقت من
قلب محب، وكم أبكت من مقلة هادئة. كم أضرمت في الأحشاء ناراً،
وألهبت في الصدور سعيراً.

إذا أحرقت في القلب موضع سُكْنَاهَا
وإن نَزَفَتْ ماءَ العُيُونِ بِهَجْرِهَا
وما الدَّمْعُ يومَ البَيْنِ إِلَّا لَآلِيٌّ
وَلَمَّا وَقَفْنَا لِلْوَدَاعِ وَتَرَجَمَتْ
فَمَنْ ذا الذي من بعد يُكْرِمُ مثواها؟
فمن أيِّ عَيْنٍ تَأْمُلُ العَيْنِ سَفْيَاهَا؟
على الرَّسْمِ في رَسْمِ الدِّيارِ نَثَرَتْهَا!
لِعَيْنِي عَمَّا في الضَّمائرِ عَيْنَاهَا

بَدَتْ صُورَةً فِي هَيْكَلٍ فَلَوَّ إِنَّا نَدِينُ بِأَدْيَانِ النَّصَارَى عِبْدَنَاهَا
وَمَا طَرَبًا صُغْنَا الْقَرِيضَ وَإِنَّمَا جَلَا الْيَوْمَ مِرَاةَ الْقَرَائِحِ مَرَّاهَا
سَاعَةَ الْوَدَاعِ بَكَى فِيهَا الشَّجْعَانُ، وَضَعَفَ أَمَامَهَا الْأَقْوِيَاءُ، وَانْهَارَ

لهولها الأشداء، واهتزت لها كتائب، وحدث فيها عجائب.

وقفت غداة البين في الكرخ وقفة لها كربت نفسي تطير شعاعاً
أودع أصحابي وهم محدقون بي وقد ضقت بالبين المُشْتِ ذراعاً
أودعهم في الكرخ والطرف مرسل إلى الجانب الشرقي منه شعاعاً
وأدعم رأسي بالأصابع مطرقاً كأن برأسي يا أَمِيمُ صُدَاعَا
وكنت أظن البين سهلاً فمُذْ أَتَى شَرَى الْبَيْنُ مِنِّي مَا أَرَادَ وَبَاعَا
وَإِنِ كُنْتُ فِي غَيْرِ الْفِرَاقِ شَجَاعاً وَإِنِ جَبَانَ فِي فِرَاقٍ أَحْبَبْتِي
كَأَنِّي وَقَدْ جَدَّ الْفِرَاقُ سَفِينَةً أَشَالَتْ عَلَى الرِّيحِ الْهَجُومَ شِرَاعَا
فمالت بها الأرواح والبحرُ مائج وقد أوشكت ألواحها تتداعى
فما أنا إلَّا قَوْمَةٌ وَانْحِنَاءٌ وَسِرٌّ أَذَاعَتْهُ الدَّمُوعُ فذَاعَا
أبيت وما أقوى الهموم بمضجع تصارعني فيه الهموم صراعَا
وألهو بذكرهم على السير كلما هبطت وهاداً أو علوت يفاعَا
وقال آخر:

وَأَتَى الرَّحِيلَ فَحِينَ جَدَّ تَرَحَّلْتُ مُهَجُّ النَّفُوسِ لَهُ عَنِ الْأَجْسَادِ
مَنْ لَمْ يَبْتَ وَالْبَيْنُ يَصْدَعُ قَلْبُهُ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفَقَّتْ الْأَكْبَادُ
إِنَّهَا السَّاعَةُ اللَّاذِعَةُ لِلنَّفْسِ، الْمَلْهَبَةُ لِلْأَفْتَدَةِ، تَذَرِفُ لَهَا الدَّمُوعُ دَمًا،
وَتَوْرَثُ الْأَكْبَادُ حَسْرَةً وَالْمَأْمَأَ.

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه هل من سبيل إلى لقياك يتفق

ما أنصفتك دموعي وهي داميةٌ ولا وفى لك قلبي وهو يحترقُ
في ساعة الوداع يرى المسافر طفله يتململ تململ اللديغ ويترنم
بألفاظ الأبوة الحانية ويرى ابنته تعصف بها اللوعة، ويشاهد أمه يعصرها
ألم البين، وتكوي فؤادها وحشةُ الفراق ويلمح أباه الشيخ المدنف يحسو
كأس الفراق قطرة قطرة.

قالت ابنة وهي تودع أباه:

إذا غبت عنا وخلفتنا فإننا سواءٌ ومن قد يَمُ
أبانا فلا رمت من عندنا فإننا بخير إذا لم ترم
أبانا إذا أضمرتكَ البلاد نُجفى وتُقطع منا الرِّحم
رمت: رحلتَ وبُعدتَ.

وهناك الزوجة الحنون رفيقة العمر، وسكن الفؤاد تخنقها العبرة ويلفها
الأسى ويجتاحها الجزع، تودعه وهي لا تعلم هل هناك من لقاء آخر أم أنه
آخر العمر ونهاية الأنس، وخاتمة المودة.

تبَدَّتْ لنا مذعورة من خبائها وناظرها باللولؤ الرطب لامعُ
أشارت بأطراف البنان وَوَدَّعَتْ وأومتْ بعينها متى أنت راجعُ؟
فقلت لها والله ما من مسافرٍ يسير ويدري ما به اللهُ صانعُ
فسالت من الطرف الكحيل المدامعُ وقالت إلهي كن عليه خليفةُ
وقال آخر:

قالت وقد نالها للبين أوجعُ والبين صعبٌ على الأحباب مَوْقعُ
اجعل يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قواه عن حمل ما فيه وأضْلَعُ

واعطف عليّ المطايا ساعةً فعسى من بتّ شمل الهوى بالبين يجمعه
 كأنني يوم ولّت حسرةً وأسى غريقُ بحر يُرى الشاطي ويمنعه
 وإذا أردت أن تسمع المحاورة المشجية، والمناجاة المبكية،
 والآهات، إذا أردت صورة صادقة لجزع الإلف حين يغادر أليفه، ولبكاء
 الحبيب حين يودّع حبيبته، فتأمل معي هذه الصورة الصادقة والعبارات
 الناطقة، التي أجزم أنها ستَمْلِكُ نَفْسَكَ، وتلهبُ قلبك، وتُسبِلُ دمعك.

ما كنت أعرفُ ما في البين من حزنٍ حتى تنادوا بأن قد جيءَ بالسُّفنِ
 لَمَّا افترَقْنَا على كُزِهِ لِفُرْقَتَنَا أَيْقَنْتُ أَنِّي قَتِيلُ الهمِّ والحَزَنِ
 قامتُ تُودِّعُنِي والدَّمْعُ يغلبُها فجمِجَمَت بعض ما قالت ولم تُبِنِ
 مالت عليّ تُفدِّني وترشُفني كما يميلُ نسيمُ الرِّيحِ بالغُصْنِ
 وأعرضتْ ثم قالتْ وهي باكيةٌ ياليتَ معرفتي إياكَ لم تُكنِ
 وقال آخر:

لم أنس يوم الرحيل موقفها وطرفها في دموعها غِرْقُ
 وقولها والركاب واقفةٌ تتركني هكذا وتنطلقُ؟!
 ودَّع رجلٌ صديقاً له وهو يقول:

وداعك مثل وداع الربيع وفقدك مثل افتقاد الدِّيمِ
 عليك السلام فكم من وفاء نفارقه منك كم من كرم
 الدِّيم: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق.

وقال آخر:

أقول له حين ودعته وكل بعبرته مفلسُ
 لئن رجعت عنك أجسامنا لقد سافرت معك الأنفسُ

وانظر إلى هذه الأبيات الرائعة للبحثري والتي يعلل فيها سبب هروبه عن ساعة الوداع لأنه يعلم ما تحدثه من ألم ولوعة في قلبه وفي قلب مودعيه فرأى أن يهرب منها رفقاً بالقلوب:

الله جارك في انطلاقك تلقاء شامك أو عراقك
لا تعذلي في مسي ري يوم سرت ولم ألاقك
إني خشيت مواقفاً للبين تسفح غرب ماقك
وعلمت ما يلقي المود ع عند ضمك واعتناقك
فتركت ذاك تعمداً وخرجت أهرب من فراقك
وقال آخر:

أشاعوا فقالوا وقفةً ووداعُ وزُمت مطايا للرحيل سراعُ
فقلت: وداعُ لا أطيعُ عيانهُ كفاني من البين المُشِتُّ سماعُ
ولم يملك الكتمان قلب ملكتهُ وعند النوى سرُّ الكتوم مذاعُ
كان رسول الله ﷺ إذا ودّع رجلاً يقول: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك» [الصحيحة: ١٤].

خرج رسول الله ﷺ يودّع معاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن وكان معاذ راكباً على راحلته ورسول الهدى ﷺ يمشي بجواره فلما فرغ من وداعه ومن وصيته له قال له: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا ولعلك أن تمرّ بمسجدي وقبري فبكي معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ.
[صحيح ابن حبان: ٦٤٧].

ودّع الصبر محبً ودّعك ذائع من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطي إذ شيعك

يا أخا البدر سناءً وسناً حفظ الله زماناً أطلعك
 إن يطل بعدك ليلي فلکم بثُّ أشكو قصر الوقت معك
 وهذا شاعر آخر - تميم الفاطمي - يقدم لنا في صورة رائعة مائة تهزّ
 النفس وتوقظ الإحساس، يقدم لنا صورة عن حالة الوداع وعن شدة
 ألمها، محاولاً أن يقرب لنا عن طريق المماثلة الحالة التي يكون عليها من
 ابتلي بفراق أحبته، وإلاً فحقيقة الأمر أشق من ذلك وأوجع مما هنالك:
 وما أمُّ خشفٍ ظل يوماً وليلةً ببلقة بیداء ظمآن صاديا
 تهيمُ فلا تدري إلى أين تنتهي موله حيرى تجوبُ الفيايا
 أضرب بها حرُّ الهجير فلم تجد لغلَّتْها من بارد الماء شافيا
 فلما دنت من خشفها انعطفت له فالفَتْهُ ملهوف الجوانح طاويا
 بأوجع مني يوم شدّت حملهم ونادى منادي الحي أن لا تلاقيا
 قال أحد المودّعين:

بكت عيني غداة البين دمعاً وأخرى بالبكا بخلت علينا
 فعاقبت التي بالدمع ضنتُ بأن أغمضتها يوم التقينا!!
 وقال آخر:

عينٌ تُسرُّ إذا رأتك وأختها تبكي لطول تباعد وفراق
 فاحفظ لواحدة دوام سرورها وعدّ التي أبكىتها بتلاقٍ!!
 قال البارودي في الوداع:

يا صاح لو أبصرت ما صنع الهوى بأخيك يوم تفرّق الأظعان
 يومٌ فقدتُ الحلم فيه وشقني ولَهْ أصاب جوانحي فرماني
 حلوا فأيّة عبرة مسفوحة ويدٍ تضمُّ حشاً من الخفقان

وقال:

محا البينُ ما أبقت عيون المها منِّي	فَسَبْتُ ولم أقضِ اللَّبَانَةَ من سَنِي
أهبتُ بصبري أن يعود فعزَّني	وناديت حلّمي أن يثوب فلم يُغنِ
ولم تمض إلاَّ خطرةً ثم أقلعتُ	بنا عن شطوط الحيّ أجنحةُ السُّفنِ
وما كنتُ جرَّبتُ النوى قبل هذه	فلما دهنتي كِدْتُ أقضي من الحُزنِ

وداع في محطة القطار

وهذا شاعر اسمه «محمد برهام» يصور لنا لحظات من لحظات الوداع الحرجة وكان ذلك في محطة القطار:

اذكري يوم أن رحلت اذكره	لا قضى الله بعد ذلك بينا
يوم كنا على المحطة نبغي	لو يطول الوقوف ثم علينا
قد أخذنا لنا مكاناً قصياً	فذكرنا أيامنا واشتكينا
ونخاف القطار يأتي، فنمضي	ننظر الساعة التي في يدينا
بل خدعنا نفوسنا «ياسعاد»	وعبثنا بعقربى ساعتينا
نحسب الوقت بالدقيقة حتى	قدم «القطر» بغتة فبكينا
وتضنين بالفراق، إلى أن	دق صوت الناقوس في أذنيننا
فركبت القطار ثم تهادى	فحكانا، ونحن نمشي الهوينى
لم يكن بعد، غير بضع ثوان	واختفيتم عن عيننا واختفيننا
افترقنا ولم نبلى غليلاً	ولنا اليوم أشهر ما التقينا
لا جزى الله يوم بينك خيراً	كم أسال الدموع من مقلتيننا!

محاورة بين بنت وأبيها المسافر

أشرنا إلى أن من أشد أنواع الفرقة والحرقة هي مفارقة المسافر لأبنائه وبناته، وإليك قصة أخرى من ذلك النوع المحزن من الفراق، وتلك اللوعة من لوعات البعاد.

أنشد الأصمعي لحاجب الفيل الشكري:

لَمَّا رَأَتْ بَنْتِي بِأَنِّي مُزْمِعٌ	بترحل من أرضها فمودّع
وَرَأَتْ رَكَابِي قُرْبَتْ لِرَحَالِهَا	قالت وغزبُ العين منها يدمّع
أَبَا أَتَتْرُكُنَا وَتَذْهَبُ تَائِهًا	في الأرض تخفضك البلاد وترفع
فِيضِيعُ صَبِيئِكَ الَّذِينَ تَرَكْتَهُمْ	بمضيمة في المضر لم يترعرعوا
فِيهِمْ صَغِيرٌ لَيْسَ يَنْفَعُ نَفْسَهُ	وصغيرة تبكي وطفل يرضع
إِنَّا سَنَرْضِي مَا أَقَمْتَ بَعِيشَنَا	ما كان من شيء نجوع ونشبع
وَاللَّهِ يَرْزُقُنَا فَنَرْضِي رِزْقَهُ	وكفى بحسن معيشة من ينفع
إِنَّا إِذَا مَا غَبَتْ عَنَّا لَمْ نَجِدْ	مما تخلف عندنا ما ينفع
تَجْفُو مَوَالِينَا وَيُعْرَضُ جَارُنَا	وقريتنا الأدنى يعز ويقطع
وَنَخَافُ أَنْ تَلْقَاكَ وَشَكُّ مَنِيَّةٍ	فيصينا الأمر الجليل المفطع
فَنَصِيرَ بَعْدَكَ لَيْسَ يُزْفَعُ بَيْنَنَا	ويذلنا أعداؤنا ونضيع
هَذَا الرَّحِيلُ وَأَمْرُنَا مَا قَدْ تَرَى	فمتى تؤوب إلى الصغار وترجع
فَخِنْتُ مِنْ قَوْلِ الصَّغَارِ بَعْبَرَةٍ	كاد الفؤاد لقولهم يتصدع
وَأَجَبْتُهَا: صَبْرًا بُيَّةً وَأَعْلَمِي	أن ليس يعدو يومه من يجزع

وداع وشكوى

وهذه من روائع إيليا أبي ماضي التي يصور فيها ساعة الوداع وألم الفراق:

أزف الرَّحيلُ وحنَّ أن تَنفَرَقَا فإلى اللِّقا يا صاحبيَّ إلى اللِّقا
 إن تبكيا فلقد بَكَيْتُ من الأسي حتى لِكِذْتُ بأذمعي أن أغرقا
 وتَسَعَّرَتْ عندَ الوداع أضالعي ناراً خَشِيتُ بِحَرِّها أن أُحرقا
 مازلتُ أخشى البينَ قَبْلَ وقوعِهِ حتى غدوتُ وليسَ لي أن أفرَقَا
 يومَ النوى، لله ما أفسى النوى لولا النوى ما أبغضتُ نفسي البقا
 رُحْنَا حَيَارَى صامتينَ كائِما للهولِ نَحْذَرُ عنده أن نَنطَقَا
 أكبأدنا خَفَاقَةً وعيوننا لا تستطيعُ، من البُكا، أن تَرْمُقَا
 تَنجاذِبُ النظراتِ وهي ضعيفَةٌ ونغالبُ الأنفاسَ كيلا تُزَهَقَا
 لو لم نُعَلِّلْ باللقاء نفوسنا كادتُ مع العَبَرَاتِ أن تتَدَفَّقَا
 يا صاحبيَّ تَصَبَّرَا فلَرُبُّما عُدنا وعادَ الشَّمْلُ أنْهَى رَوْنَقَا
 إن كانتِ الأيَّامُ لم تَرَفُقْ بنا فَمِنَ النُّهى بنفوسنا أن نَرْفُقَا
 إنَّ الذي قَدَرَ القطيعةَ والنوى في وَسْعِهِ أن يجمعَ المُتَفَرِّقَا!..

وهذا مقطع من قصيدة بعنوان «الركبُ المسافر» للشاعر عيسى بن علي

جرايا:

يا ليلُ أينَ أحبتي ورفاقي؟ أوغادروا؟ والدمعُ في أحداقي!
 يا ليلُ أينَ رحيلُهم؟ أو يتركوا نَ القلبَ يُحرقُ في لظى الأشواق؟
 يا أيُّها الركبُ المسافرُ لحظةً ضاقتُ بيَ الدنيا، وشَدَّ وثاقي

وعلى فمي وقفَ القريضُ كأنما
والعينُ غامت في رؤاها حين سا
وتفجرتُ منها ينابيعُ الأسى
العمرُ يمضي كلُّه في لوعةٍ
أستارُ ليل فراقنا قد أُسَدْتُ
خافَ القريضُ ولم يشأ إرهابي
ر الـركبُ، فيه أحبتي ورفاقي
وتوقد الإحساسُ في أعماقي
وحنينٍ مشتاقٍ إلى مشتاق
فمتى سيهتكها صباحُ تلاق؟

بكاء لفراق الحليّة

رائعةٌ من روائع الشعر العربي يبكي فيها الشاعر غربته، ويحن إلى أحبته، ويتأسف على تركه زوجته، يتأوه من مرارة الفراق ولوعة الوداع، ونار الغربة. سافر من بغداد إلى الأندلس طالباً للرزق وقد مات بالأندلس ولم يتمكن من الرجوع إلى بغداد. يقول علي بن زريق رحمه الله:

لا تعذليه فإن العذل يولعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدّاً أضرب به من حيث قدّرت أن اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلاً من عنفه فهو مضنى القلب موجهه
قد كان مضطلعاً بالخطب يحمله فضيقت بخطوب البين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له من النوى كل يوم ما يُروّعه
ما آب مغتربٌ إلا وأزعجه رأيي إلى سفرٍ بالعزم يجمعه
كأنما هو من حلٍّ ومُرتحلٍ موكلٌ بفضاء الأرض يذرعه
إذا الزمان أراه في الرّحيل غنيّ ولو إلى السند أضحي وهو يُزّمه
تأبى المطامعُ إلا أن تُجشّمه للرزق كدّاً، وكم ممّن يُودّعه
وما مُجاهدة الإنسان توصله رزقاً، ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسّم بين الخلق رزقهم لم يخلق الله مخلوقاً يضيّعه
لكنهم ملئوا حرصاً فلست ترى مُسترزقاً، وسوى الغايات يقنعه
والسعي في الرزق والأرزاق قد قُسمت

بغِيّ، ألا إن بغِي المرء يصرعه

يوماً، ويمنعه من حيث يُطْمَعُهُ
بالكرخ من فلك الإزار مَطْلَعُهُ
صَفْوُ الحياة وأنِّي لا أودعه
وللضرورات حالٌ لا تشْفَعُهُ
وأدمعي مُسْتَهْلَاتٌ وأدمعُهُ
كذاك من لا يسوس الملك يُخْلَعُهُ
شكر الإله، فعنه الله ينزعه
كأساً أَجْرَعٌ منها ما أَجْرَعُهُ
الذنب والله ذنبي لست أدفعه
لو أنني يوم بان الرشد أتبعُهُ
بحسرة منه في قلبي تُقْطَعُهُ
بلوعةٍ منه ليلي لست أهجعه
لا يطمئن له مُذْ بنتٌ مضجعه
به، ولا أن بني الأيام تُفْجِعُهُ
عسراء تمنعني حظي وتمنعه
آثاره وعفت مذ غبتُ أربعه
أم الليالي التي أمضتُهُ تُرْجِعُهُ
وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه
كما له عهد صدقٍ لا أُضَيِّعُهُ
جری على قلبه ذكري يُصَدِّعُهُ

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه
أستودع الله في بغداد لي قمراً
ودَّعْتُهُ، وبودِّي لو يودعني
وكم تَشَقُّعُ أني لا أفارقه
وكم تشبث بي عند الرحيل ضحى
أعطيتُ ملكاً ولم أحسن سياسته
ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا
اعتضتُ عن وجد خلِّي بعد فرقته
كم قائل لي ذنب البين قلت له
هلا أقمتُ فكان الرُّشد أجمعه
إنني لأقطع أيامي وأنفذها
بِمَنْ إذا هجع الثَّوَامُ بثُّ له
لا يطمئن لجنبي مضجعٌ، وكذا
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد
بالله يا مَنْزِلَ القصف الذي دَرَسْتُ
هل الزمان معيدٌ فيك لَدَّتْنَا؟
في ذمَّة الله من أصبحت منزله
من عنده لي عهدٌ لا يُضَيِّعُهُ
ومن يصدع قلبي ذكره، وإذا

لأَصْبِرَنَّ لِدهْرِ لا يمتعني به، ولا بيَ في حالٍ يُمتَّعُ
علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً وأُضيقَ الأمر إن فكَّرت أوسَعُ
علَّ الليالي التي أضنتُ بفرقتنا جسمي ستجمعني يوماً وتجمَعُ
وإن تنلُ أحداً منَّا منيته فما الذي بقضاء الله يَصْنَعُ

محبّ يحب الفراق

من لم يذق مرارة الفراق لم يدر ما حلاوة التلاقي
وقبل أن نغادر ساحة الفراق، ونمسح دموع الوداع استمع إلى هذا
الشاعر الذي فهم من الوداع فهماً آخر، ونظر إلى ساعة الفراق نظراً مخالفاً
فهو يرى أن ساعة الفراق جميلة، ولحظات الوداع مباركة، وأنه متى نوى
الفراق والوداع التهب فؤاده وفؤاد مودّعه وجزع قلبه وقلب مُفارقة،
فيهرعون من الوداع إلى اللقاء ومن الفراق إلى العناق، وقد يكون في ذلك
العناق واللقاء ما يقوي ارتباط بعضها ببعض وتركهما للفراق وهروبهما
من الغياب:

مُتّعاً باللقاء يومَ الفراقِ مُستجيرَيْن بالبكا والعناقِ
فأظللُ الفراقُ فالتقيا في هـ فراقاً أتاهما باتّفاقِ
كيف أدعو على الفراقِ بحثفٍ وغداة الفراقِ كان التلاقي
وهذا الشاعر فخري أبو السعود من شعراء مجلة الرسالة المشهورين
يكتب قصيدة يمتدح فيها البين، ويشيد فيها بالفراق، وقد علّل لذلك
بتعليلات لطيفة للغاية، وهي بعنوان البعاد:

اه ما أعذبَ البعادَ وإن أز رى عليه من قبلنا العاشقونا
إنني أشتهي البعادَ زمانا مثلما أشتهي التواصل حيناً
لا أحبُّ اللقاء عهداً مقيماً مستمراً به نُقضني السنيناً
ما ألدَّ الهوى لقاءً ووداعاً وكتاباً أدّى التحايا أميناً
إن هذا البعادَ يُدكي بي الحبَّ ويُخبي ولائي المكنونا

فأفدّيك في النوى بحياتي
وأحييك كلما ذكّرْتني
وأرى أن ودّنا يعبر السهـ
إن هذا البعاد يبعث بالأشـ
ويُعيد العذاب من ذكرياتي
ويثير المنى بنفسي ولن ألـ
أتمنى اللقاء بيوم لنا أر
أتمنى اللقاء وفيك وفاءً
حُبُّنا من صفاته أنه برٌّ وثيق
الذمام يعلو الظنونا

وأحبُّ الأيام عندي ما أر
أنفقُ العمرَ مسرفاً فإذا أقـ
كلّ حين لنا لقاءً سعيدٌ
وتزيدين في البعاد جمالاً
وتزيدين في الشمائل إينا
وتزيدين كل حين سموّاً
أنتِ كنز من المحاسن أخفيـ
كي أراه إن عُدتُ أبغيه قدّزا
كلّ يوم أجددُ البُعـ
فكأنني عشقتُ ألفاً ومازلـ
ما أحبُّ الهوى افتقاداً ووجداً
حيثما تُصبحين أو تُمسينا
ك رياضٍ رفّت علينا غصونا
ل ويزقّي الربا يطوى الحزونا
سواق حَرّى ويستجيش الحيننا
وقديماً من عهدنا ودفيـ
قى بأسمى المنى سواك قمينا
جع فيه إليك أو ترجعينا
باتَ عندي بأن تَبْرّي ضمينا
قُبُ فيه لقاءك الميمونا
بَلْ يومُ اللقاء كنتُ ضنينا
ووداع أطوي عليه شجوننا
ورواء وبهجة وفتونا
سأ وعطفاً كما أحبُّ ولينا
وعلوّاً فات الذرا والقنونا
ه نفيساً عن ناظريّ ثمينا
د جمالاً يسبي النهى والعيونا
د وأُحيي منه فنوناً فنونا
سُ الفتى الوافي الذي تعرفينا
نأ وقرباً حيناً وبعداً شَطُونا

من أخبار المسافرين (٢١)

مسافر يترك السفر عطفاً على زوجته

أراد أعرابي أن يسافر فأوصى امرأته قائلاً :
عُدِّي السنين لغيتي وتصبّري وذري الشهور فإنهن قصارُ
فقلت له :

اذكر صبابتنا إليك وشوقنا وارحم بناتك إنهن صغار
فأقام وترك السفر .
وقال آخر :

ولما تبدّت للرحيل جمالنا وجدّ بنا سيرٌ وفاضت مدامعُ
تبدّت لنا مذعورة من خباثتها وناظرها بالؤلؤ الرطب لامعُ
أشارت بأطراف البنان وودّعت وأومت بعينها متى أنت راجعُ
فقلت لها والله ما من مسافر يسير ويدري ما به الله صانعُ
فشالت نقاب الحسن من فوق وجهها

فسالت من الطرف الكحيل مدامعُ
وقالت إلهي كن عليه خليفة فيارب ماخابت لديك الودائعُ

آيات للتدبر والتفكر

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَرْفُقْكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَوَّلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ﴿٧٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ ﴿٧٨﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٧٩﴾

[سورة النحل]

وداع لا رجعة بعده

وهذا نوعٌ من أنواع الوداع، ولكنه وداع من نوع آخر؛ إنه الوداع الذي لا رجعة بعده، ولا أمل في اللقاء معه، وكم من حبيب ودّع حبيبه إلى الأبد، وقريب ودّع قريبه على غير أمل في اللقاء.

إذا كان من أمر الوداع الذي يرجى بعده اللقاء ما رأينا من اللوعة والألم وتفتت الأكباد وحرقة الفؤاد، فكيف بمن يودّع حبيبه على غير أملٍ من لقائه ولا رجاء في رؤيته بعد ذلك إلا أن يجمع الله تعالى بينهم في دار النعيم. جعلنا الله وإياكم وجميع من ودعناه من أهلنا ممن يفوز بها.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وإليك، أخي المسافر، بعض قصائد الوداع أو ما يسمى بالثناء، وقد أوردتها لعدة اعتبارات منها: التذكر والاعتبار؛ فإن المسافر يعلم أنه سيكون في يوم من الأيام خبراً من الأخبار، وقصة وجدت على مسرح الحياة، ثم أسدل عليها الستار، فيدفعه ذلك إلى تقديم ما ينفعه والاستعداد لرحيله.

سل الأيام ما فعلت بكسرى	وقيصر والقصور وساكنيها
أما استدعتهم للموت طُرّاً	فلم تدع الحليم ولا السفىها
دنت نحو الدنيّ بسهم خطب	فأصمته وواجهت الوجيها
أما لو بيعت الدنيا بفلسٍ	أنفتُ لعاقل أن يشتريها

ومنها: أن الإنسان إذا خلف بعده السمعة الحسنة والذكر الطيب فهو

في الحقيقة لم يمت . فالذكر للإنسان عمرٌ ثان .
ومنها : أن قصائد الرثاء أو الوداع الأخير هي أصدق ما يمثل العاطفة
الإنسانية الجياشة وأقوى ما يفصح عن خلجات الضمير ، وأعماق
الأفئدة .

ضحايا القطار

هذه قصيدة لشوقي يرثي فيها طائفة من شباب مصر سافروا لتلقي العلم في جامعات أوروبا فاصطدم القطار الذي يقلهم من أرض إيطاليا، فقتل أحد عشر طالباً، وجيء بهم إلى مصر، فاستقبلت جثثهم استقبالاً رهيباً، واشتركت في جنازتهم جميع طوائف البلاد، وزاد في هول هذا المصائب أنه حدث إبان اشتعال الثورة في البلاد سنة ١٩٢٠ م.

ألا في سبيل الله ذاك الدَّمُ الغالي
وبعضُ المنايا همَّةٌ من ورائها
أَعْيَنِي، جوداً بالدموع على دم
تناهت به الأحداثُ من غُربةِ النَّوى
جری أرجوانياً، كُمَيْتاً، مُشْغِشَعاً
ولاذ بقُضبانِ الحديدِ شهيدُهُ
طوى الغربَ نحو الشرقِ يعدو سُلَيْكُهُ
يُسِرُّ إلى النفسِ الأَسَى غيرَ هامِسٍ
سماءُ الحِمَى بالشاطِئِينَ وأرضُهُ
ترى الريحَ تدرِي: ما الذي قد أعادها
يُقِلُّ من الفتيانِ أشبالَ غابَةِ
ثَنَّتْهُ العوادي دُونَ (أودِينَ)، فانشَى
قد اعتنقا تحت الدَّخانِ كما التقَى
فسبحانَ من يرمي الحديدَ وبأسِهِ

وللمجد ما أبقي من المثل العالي
حياةً لأقوام، ودُنْيا لأجيال
كريمِ المُصَفَّى من شباب وآمال
إلى حادثٍ من غُربةِ الدهرِ قتال
بأبيضَ من غسلِ الملائِكِ سَلْسَال
فَعَادَتْ رَفِيفاً من عيونِ وأطلال
بمضطَرِبٍ في البرِّ والبحرِ، مِرْقال
ويُلقي على القلبِ الشَّجَى غيرَ قَوَّال
مناحَةً أقمارٍ، ومَأْتَمُ أشبال
بساطاً، ولكن من حديدٍ وأنقال؟
غُدَاةً على الأخطارِ رُكَّابَ أهوال
بآخَرَ من دُهمِ المقاديرِ ذَيَّال
كَمَيَّانٍ في داجٍ من النقعِ مُنْجَال
على ناعمِ غَضٍّ من الزهرِ مِنْهال

ومن يأخذُ السارين بالفجرِ طالعاً
ومن يجعلُ الأسفار للناسِ همّةً
فهل عطفتكم رنة الأهل والحمى
لئن فات مصرأ أن يموتوا بأرضها
طلوعَ المنايا من ثنّات آجال
إلى سفرٍ ينوونه غيرَ قُقال
وضجة أترابٍ عليهم وأمثال؟
لقد ظفروا بالبعث من تُربها الغالي

أبو الحسن الأنباري يرثي وزير عز الدولة

وقال أبو الحسن الأنباري، المتوفى عام ٢٣٨هـ، يرثي أباطاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قتل وصلب، وقد كان جواداً كريماً محبوباً عند الناس، وهي من أعظم المراثي، ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى إن عضد الدولة الذي صلبه تمنى أن لو كان هو المصلوب، وقيلت فيه:

علو في الحياة وفي الممات	لحق تلك إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً	وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم اختفاءً	كمدّهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن أن	يضمّ علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوقبرك واستعاضوا	عن الأكفان ثوب السافيات
لعظمك في النفوس تبيت ترع	سى بحرّاس وحفاظ ثقات
وتوقد حولك النيران ليلاً	كذلك كنت أيام الحياة
ركبت مطية من قبل زيد	علاها في السنين الماضيات
وتلك قضية فيها تأسّ	تباعد عنك تعيير العداة
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً	تمكن من عناق المكرمات
أسأت إلى النوائب فاستثارت	فأنت قتيل ثار النائبات
وكنت تجيرنا من صرف دهر	فعاد مُطالباً لك بالترات
وصير دهرك الإحسان فيه	إلينا من عظيم السيئات
وكنت لمعشر سعداً فلما	مضيت تفرقوا بالمحسنات

عليل باطن لك في فؤادي	يخفف بالدموع الجاريات
ولو أني قدّرت على قيام	بفرضك والحقوق الواجبات
ملأت الأرض من نظم القوافي	ونحت بها خلاف النائحات
ولكنني أصبّر عنك نفسي	مخافة أن أعدّ من الجناة
ومالك تربة فأقولُ تسقى	لأنك تُصبّ هطل الهاطلات
عليك تحية الرحمن تترى	برحمات غواد رائحات

عائشة التيمورية تودّع ابنتها

وهذه عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ ترثي ابنتها . وهي قصيدة مبكية حقاً، ومؤثرة للغاية . كيف لا وهي تصور موقف الأم الحنون، وهي تفقد فلذة كبدها، وأحب شيء إلى قلبها حيث تقول :

سُتِرَ السنا وتحجبت شمس الضحى وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرعني الأسى وغدت بقلبي جذوة وسعير
يا ليته لما نوى عهد النوى وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماء حشاشتي نار لها بين الضلوع زفير
لو بُثَّ حزني في الورَى لم يُلتَفَتْ لمصاب قيس والمصاب كبير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى سحراً وأكواب الدموع تدور
فتناولت منها ابنتي فتغيرت وجنات خدّ شأنها التغيير
فَذَوْتُ أزهير الحياة بروضها وانقَدَّ منها مائس ونضير
لَبِسْتُ ثياب السقم في صغر وقد ذاق شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضحى وبشر بالشفاء إن الطبيب بطبه مغرور
وصف التجرع وهو يزعم أنه بالبرء من كل السقام بشير
فتنفست للحزن قائلة له عَجَّلْ ببرئي حيث أنت خبير
وارحم شبابي إن والدتي غدت ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حُرِّمت طيب الكرى تشكو السهاد وفي الجفون فتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزه قالت ودمع المقلتين غزير
أُمّاه قد كَلَّ الطبيب وفاتني مما أؤمل في الحياة نصير

سترين نعشي كالعروس يسير
هو منزلي وله الجموع تصير
جاءت عروساً ساقها التقدير
فتراك روح راعها المقدور
يا حسنهما لو ساقها التيسير
مُذ بان يوم البين وهو عسير
قد خلفت عني لها تأثير
قد كان منه إلى الزفاف سرور
لبس السواد ونُفذ المسطور
ريحانها عند المزار زهور
قبري لئلا يحزن المقبور
قد زال صفو شأنه التكدير
حزن عليك وحسرة وزفير
برياض خلد زيتنها الحور
عيشي وصبري - والإله خبير
قد غاب بدر جمالها المستور
راض وباك شاكر وغفور
ما ازيّنت لك غرفة وقصور

أماه قد عز اللقاء وفي غد
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي
قولي لرب اللحد رفقاُ بابنتي
وتجلدي بإزاء لحدي بُرْهَةً
أماه قد سلفت لنا أُمِّيَّة
كانت كأحلام مضت وتخلفت
عودي إلى ربع خلا ومآثر
صوني جهاز العرس تذكّاراً فلي
جرت مصائب فرقتي لك بعد ذا
والقبر صار لغصن قدي روضة
أماه لا تنسي بحق بُنوّتي
بتاه يا كبدي ولوعة مهجتي
لا توص ثكلى قد أذاب فؤادها
أبكيك حتى نلتقي في جنة
إن قيل «عائشة» أقول لقد فني
ولهي على «توحيدة» الحسن التي
قلبي وجفني واللسان وخالقي
متعت بالرضوان في خلد الرضا

البارودي يبكي زوجته في الغربة

وهذا البارودي يرثي زوجته وقد ورد إليه نعيها وهو في غربته بـ(سرنديب) حيث نفى هناك عقب الثورة العراقية في صفر سنة ١٣٠٠هـ، وسرنديب هي جزيرة من أراضي الهند في جنوب بيهار. فانظر إلى البارودي الذي كان يكتبون بنار الغربة ويحن إلى أهله وبلده ثم يفاجأ بخبر وفاة زوجته التي كان يحبها حباً شديداً وهو ما تعبر عنه هذه المراثية العظيمة المؤثرة ومنها:

وَأَطْرَتْ أَيْةَ شُعْلَةٍ بِفُؤَادِي
وَحَطَمْتَ عُودِي وَهُوَ رُمَحٌ طَرَادٍ
فَأَنَاخَ، أَمْ سَهْمٌ أَصَابَ سَوَادِي؟
جَسَمِي يَلُوحُ لِأَعْيُنِ الْعُودِ
تَقْوَى عَلَى رَدِّ الْحَبِيبِ الْغَادِي
كَأَنْتِ خُلَاصَةٌ عُدَّتِي وَعَتَادِي
أَفَلَا رَحِمْتَ مِنَ الْأَسَى أَوْلَادِي؟
فَرَحَى الْعُيُونِ رَوَاجِفَ الْأَكْبَادِ
دُرُّ الدُّمُوعِ قَلَائِدَ الْأَجْيَادِ
كَأَنْتِ لَهُنَّ كَثِيرَةَ الْإِسْعَادِ
وَقُلُوبُهُنَّ مِنَ الْهُمُومِ صَوَادِي
حَلَّتْ لِفَقْدِكَ بَيْنَ هَذَا النَّادِي؟
بِالنَّفْسِ عَنْكَ لَكُنْتُ أَوَّلَ فَادِي

أَيْدَ الْمُنُونِ قَدَحَتْ أَيْ زِنَادٍ
أَوْهَنْتِ عَزَمِي وَهُوَ حَمْلَةٌ فَيَلَقِ
لَمْ أَدْرِ هَلْ خَطَبْتُ أَلَمَ بِسَاحَتِي
أَبْلَتْنِي الْحَسَرَاتُ حَتَّى لَمْ يَكُذْ
لَا لَوْعَتِي تَدَعُ الْفُؤَادَ، وَلَا يَدِي
يَا مَوْتَ فِيمَ فَجَعْتَنِي بِحَلِيلَةٍ؟
إِنْ كُنْتُ لَمْ تَرْحَمْ ضَنَائِي لِتُعْذِرَهَا
أَفَرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنْمَنْ تَوَجُّعاً
أَلْفَيْنَ دُرٍّ عُقُودِهِنَّ، وَصُغْنَ مِنْ
يَبْكِينَ مِنْ وَلَهْ فِرَاقِ حَفِيَّةٍ
فَخَذُوهُنَّ مِنَ الدُّمُوعِ نَدِيَّةٍ
أَسْلِيلَةَ الْقَمَرَيْنِ! أَيُّ فَجِيعَةٍ
لَوْ كَانَ هَذَا الْمَوْتُ يَقْبَلُ فِدِيَّةً

لكنَّها الأقدارُ لَيْسَ بِنَاجِعٍ
هِيَهَاتَ بَعْدَكَ أَنْ تَقَرَّ جَوَانِحِي
وَلَهِي عَلَيْكَ مُصَاحِبٌ لِمَسِيرَتِي
فَإِذَا انْتَبَهْتُ فَأَنْتَ أَوَّلُ ذِكْرَتِي
تَعِسَ امْرُؤٌ نَسِيَ الْمَعَادَ وَمَا دَرَى
فَاسْتَهْدُ «بِامْحَمُودُ» رَبِّكَ، وَالتَّمِسْ
وَاسْأَلْهُ مَغْفِرَةً لِمَنْ حَلَّ الثَّرَى
هِيَ مُهْجَةٌ وَدَعْتُ يَوْمَ زِيَالِهَا
تَاللهِ مَا جَعَلْتَ دُمُوعِي بَعْدَ مَا
لَا تَحْسَبُنِي مِلْتُ عَنْكَ مَعَ الْهَوَى
قَدْ كَذْتُ أَقْضِي حَسْرَةً لَوْ لَمْ أَكُنْ
فَعَلَيْكَ مِنْ قَلْبِي التَّحِيَّةُ كُلَّمَا

فِيهَا سِوَى التَّسْلِيمِ وَالْإِخْلَادِ
أَسْفَا لِبُعْدِكَ أَوْ يَلِينُ مِهَادِي
وَالدَّمْعُ فِيكَ مُلَازِمٌ لِسَوَادِي
وَإِذَا أَوَيْتُ فَأَنْتَ آخِرُ زَادِي
أَنَّ الْمُنُونَ إِلَيْهِ بِالْمِرْصَادِ
مِنْهُ الْمَعُونَةُ، فَهُوَ نِعْمَ الْهَادِي
بِالْأَمْسِ، فَهُوَ مُجِيبُ كُلِّ مُنَادِي
نَفْسِي، وَعِشْتُ بِحَسْرَةٍ وَبِعَادِ
ذَهَبَ الرَّدَى بِكَ يَا بَنَّةَ الْأَمْجَادِ
هِيَهَاتَ، مَا تَرَكُ الْوَفَاءَ بِعَادِي
مُتَوَقِّعاً لِقِيَاكَ يَوْمَ مَعَادِي
نَاحَتْ مُطَوَّقَةً عَلَى الْأَعْوَادِ

ولدي!!

كنت أتصور أن الشعر وحده هو الذي يملك هزّ المشاعر، وإثارة الأحاسيس وتصوير دقائق النفس، وخلجات الضمير، فلما قرأت هذه المقالة قلت: أشهد أن من النثر ما يتفوق على الشعر. إن الكاتب البارع والإنسان البليغ يستطيع أن يعبر عما في نفسه وما يختلج في مشاعره وينقل تجربته إلى غيره فيجعلهم يعيشونها معه وليس شرطاً أن تكون في قالب من الشعر.

قرأت هذه المقالة للأديب المسلم العربي المتألق أحمد حسن الزيات - رحمه الله - أستاذ الكلمة وقبطان العبارة وملك الأسلوب، صاحب مجلة الرسالة الرائدة، ذلك الأديب المسلم الغيور الذي كانت له كتابات إسلامية رائعة أسأل الله أن يأجره عليها، فقلّما تجد في عصره أعذب من أسلوبه، أو أجمل من مقالاته، أو أصدق من انفعالاته، إنه علّم شامخ في فن الكتابة العربي الأصيل السهل الممتنع، على العموم ليس هذا ميداناً للحديث عن الزيات - رحمه الله - ولكنني قرأت له هذه المقالة التي يرثي فيها ابنه «رجاء» الذي جاء على شوق وطول انتظار ثم اختطفته المنيا وهو في عمر الزهور كما يقال، لن أطيل في الكلام عن المقالة ولكنني أذكر لك تجربتي معها ولا أدري ربما يكون تأثري البالغ بها لأنني بفضل الله تعالى رجلاً عاطفي إلى حدّ كبير حتى إنني لو رأيت هرة في الطريق دهستها سيارة أو تلوّى من الألم فإني لا أملك دموعي فكيف بمقال كهذا المقال الذي يرثي فلذة الكبد، ويصور مرارة اللوعة على فقد

الولد . والذي نفسي بيده إنني حينما قرأتها أخذت أنتفض وأبكي وأصبح وكأنني مجنون أو أصبتُ بمصيبة كبيرة أو نزلت بي نازلة عظيمة ، فأترك الآن مع البيان الساحر ، والعبارة الصادقة ، والكلمة المؤثرة .

«ولدي» هكذا وبهذا العنوان كتب مقالته الأديب البارِع والأستاذ اللامع أحمد حسن الزيات بعد أن وضع بجوار العنوان صورة لولده رجاء رحمهما الله تعالى :

يا قارئني أنت صديق فدعني أرقُ على يدك هذه العبرات الباقية! هذا ولدي كما ترى ، رُزِقته على حال عابسة كاليأس ، وكهولة بائسة كالهرم ، وحياة باردة كالموت ، فأشرق في نفسي إشراق الأمل ، وأورق في عودي إوراق الربيع ، وولدتُ في حياتي العقيمة معاني الجدّة والاستمرار والخلود! كنت في طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ، وأفيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد ما ألبس ، وأكسب المال ولا أجد السعادة وأعالج العيش ولا أدرك الغاية!! كنت كالصوت الأصم لا يُرجّعه صدى ، والروح الحائر لا يُقرّئه هدى ، والمعنى المبهم لا يحدده خاطر!! كنت كالآلة أنتجت آلة واستهلكها عمل ، فهي تخدم غيرها بالتسخير ، وتميت نفسها بالدؤوب ، ولا تحفظ نوعها بالولادة ، فكان يصلني بالماضي أبي ، ويمسكني بالحاضر أجلي ، ثم لا يربطني بالمستقبل رابط من أمل أو ولد . فلما جاء (رجاء) وجدّتي أولد فيه من جديد؛ فأنا أنظر إلى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم إلى الوجود بشعر الأطفال ، وأضطرب في الحياة اضطراب الحي الكامل يدفعه من ورائه طمع ، ويجذبه من أمامه طموح! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطاً في

جسمي، وبالأمل القوي ينبعث جديداً في نفسي، وبالمرح الفتى يضج
 لاهياً في حياتي، وبالعيش الكثيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس
 المنى! فأنا ألعب مع رجاء بلُعبه، وأتحدث إلى رجاء بلغته، وأتبع عقلي
 هوى رجاء فأدخل معه دخول البراءة في كل ملهى، وأطير به طيران
 الفراشة في كل روض، ثم لم يعد العمل الذي أعمله جديراً بعزمي، ولا
 الجهد الذي أبذله كفاءً لغايتي، فضاعفت السعي، وتجاهلت النصب،
 وتناسيت المرض، وطلبت النجاح في كل وجه! ذلك لأن الصبي الذكي
 الجميل أطال حياتي بحياته، ووسّع وجودي بوجوده، فكان عمري
 يغوص في طوايا العدم قليلاً قليلاً ليمد عمره بالبقاء، كما يغوص أصل
 الشجرة في الأرض ليمد فروعها بالغذاء.

شغل رجاء فراغي كله، وملاً وجودي كله، حتى أصبح شغلي
 ووجودي! فهو صغيراً أنا، وأنا كبيراً هو؛ يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوي،
 وينام فأستريح، ويحلم فتسبح روحي وروحه في إشراق سماوي من
 الغبطة لا يوصف ولا يحد!!

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في
 بسماتي؟ ما هذا الرضا الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ
 شعوري؟ ذلك كله انعكاس حياة على حياة، وتدفق روح في روح، وتأثير
 ولد في والد!؟

ثم انقضت تلك السنون الأربع! فَطَوَّحْتُ الواحة وأوحش القفر،
 وانطفأت الومضة وأغطش الليل، وتبدد الحلم وتجهم الواقع، وأخفق
 الطب ومات رجاء!!

يا جبار السموات والأرض رُحماك!! أفي مثل خفقة الوسنان تبدل
الدنيا غير الدنيا، فيعود النعيم شقاء، والملاء خلاء، والأمل ذكرى؟! أفي
مثل تحية العجلان يصمت الروض الغرد، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح
الوجود الجميل؟! حنانيك يا لطيف! ما هذا اللهب الغريب الذي يهب
على غشاء الصدر ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب؟

إن قلبي يتزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها مُعول! فهل
لبيان الدمع ترجمان، ولعويل الثاقل ألحان؟ إن اللغة كوّن محدود فهل
تترجم اللانهاية؟ وإن الآلة عصب مكدود فهل تعزف الضرم الواري؟ إن
من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف حالي بعده! أشهد لقد
جزعت عليه جزعاً لم يغن فيه عزاء ولا عظة! كنت أنفر ممن يعزيني عنه
لأنه يهينه، وأسكن إلى من يباكيني عليه لأنه يُكبره، وأستريح إلى
النادات يندبن الكبد الذي مات، والأمل الذي فات، والملك الذي رُفع!
لم يكن رجاء طفلاً عادياً حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه؛
إنما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق! كان وهو في سنّه
التي تراها يعرف أوضاع الأدب، ويدرك أسرار الجمال، ويفهم شؤون
الأسرة، ويؤلف لي (الحواديت) كلما ضمّني وإياه مجلس السمر! كان
يجعل نفسه دائماً بطل (الحدوته) فهو يصرع الأسود التي هاجمت الناس
من حديقة الحيوانات، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام
المظاهرات، ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده
ببندقته الصغيرة من مختلف الطير!

والهف نفسي عليه يوم تسلل إليه الحِمَام الراصد في وعكة قال الطبيب

إنها (البرد) ثم أعلن بعد ثلاثة أيام أنها (الدفترية)! لقد عبث الداء الويليل
بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة الغضة! ولكن ذكاءه
وجماله ولطفه ما برحت قوية ناصعة، تصارع العدم بحيوية الطفولة!! .
والهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت، وأدركته شهقة الروح،
فصاح بملء فمه الجميل: (بابا! بابا!) كأنما ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع
عن نفسه!
لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء، وللذين تطولوا بالمواساة فيك
السلامة والبقاء .